السنة السادسة

نظرة جديدة إلى الدعوة

أخذ العرب بعد هزيمة الأحزاب وبعد هزيمة بنى قريظة ينظرون إلى دعوة الإسلام نظرة جديدة، وسرى فى نفوسهم أن هذه الدعوة لا بد أن تكون مؤيدة بقوة الله، وأن محمدًا وأصحابه لا بد أن يكونوا على الحق، وأنهم قد تكون لهم الغلبة والنصر فى النهاية؛ فأخذت القبائل المعادية تخفف شيئًا من عداوتها، وأخذت القبائل الأخرى تحاول التقرب من المسلمين، وأخذ جو من الرهبة والجلال يملأ نفوس الناس عن الإسلام ورسوله ﷺ، فذهبوا يتحدثون بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد وقوته ورهبة جانبه.

على أن المسلمين مع ذلك ظلوا أيقاظًا لم يُلقوا سلاحهم قط، لأنهم يعلمون أن أعداءهم كُثْر، وأنهم لا يزالون مُحَنَقين موتورين، يملأ نفوسهم الغيظ من هذه الدعوة التى يظهر أمرها يومًا بعد يوم، ومن هذه الطائفة التى يشتد ساعدها شيئًا بعد

شيء؛ فكان على المسلمين أن يظلوا أيقاظًا لكل حركة من حركات أعدائهم، وأن يكونوا دائماً على أهبة العمل والاستعداد لكل طارئة من الأمر؛ كما كان عليهم أن يُؤكدوا فى نفوس الناس أنهم أهل لما أمدهم الله به من نصر، وأن يُشعروا أعداءهم بأنهم قوة قادرة على الإرهاب والغزو، وعلى صد العدو مهما كانت جموعه ومهما كانت قوته، حتى لا يفكر أحد من العرب ولا من اليهود فى غزو المدينة أو يؤمل فى هزيمة المسلمين بعد ذلك النصر المؤزر، الذى كتبه الله لهم فى غزوة الأحزاب وفى غزوة بنى قريظة.

إرهاب العدو

من أجل ذلك لم يُلق المسلمون سلاحهم، ولم يستنيموا لأعدائهم، اتكالا على أن الله معهم، وأنه مؤيدهم بحوله وقوته؛ فإن الله لا يكون مع الغافلين أبدًا، ولا يؤيد المتواكلين الذين يرجون منه النصر والتأييد دون أن يأخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا. فما كاد رسول الله ﷺ ينتهى من أمر بنى قريظة فى أواخر السنة الخامسة، حتى بدأ منذ أوائل السنة السادسة يعمل على إرهاب العدو فى كل ناحية؛ فأخذ يبعث السرايا ويقود الغزوات فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب، ليرهب

أعداءه من العرب واليهود جميعًا، وليأخذهم على غِـرَّة وهـم فرادى، قبل أن يأخذوه وهم قوة مجتمعة.

غزوة ضرية

فى الليلة العاشرة من شهر المحرم من هذه السنة (مايو ٦٢٧)، بعث صلى الله عليه وسلم محمد بن مَسْلَمة فى ثلاثين راكبًا إلى بنى بكر بن كلاب، وكانوا ينزلون بناحية «ضَرِيَّة» على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة. فسار إليهم، يَكْمُن النهار ويسير الليل حتى دهمهم، فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاق من أنعامهم مائة وخمسين بعيرًا وثلاثة آلاف شاة، ثم رجع إلى المدينة لليلةٍ بقيت من المحرم، بعد أن غاب عنها تسع عشرة ليلة.

غزوة بنى لحيان

وفى مستهلّ ربيع الأول (يولية ٦٢٧)، خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه، قاصدًا بنى لِحْيان، وهم الذين غدروا بأصحاب الرجيع: خُبَيْب وأصحابه؛ وكانوا ينزلون واديًا بالحجاز بناحية مكة يسمى «فَرْعَان»؛ فأوْهَم صلى الله عليه وسلم أنه يريد الشام، حتى لا يعرف بنو لحيان مقصده فيحذروه قبل أن يدركهم؛ فخرج من المدينة مُيَمِّمًا نحو الشمال، ثم أمعن فى السير

نحو بريد، حتى إذا بَعُد مقصدُه عن الظنون عرَّج على يساره حتى استقام على طريق مكة، ثم انحدر إلى ناحية الجنوب مسرعًا إلى فزان. لكن بني لحيان كانوا من الحذر والخوف بحيث كانوا يراقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلاحظونه ملاحظة شديدة؛ فما كاد يصل إلى مصرع أصحاب الرجيع حتى أدرك بنو لحيان أنه يريدهم، فهربوا فى رءوس الجبال؛ وذهب - صلى الله عليه وسلم - إلى منازلهم فلم يجد بها أحدًا؛ فأقام هناك يومًا أو يومين، وبعث سراياه فى كل ناحية فلم يعثروا على أحد، فاعتزم الرجوع إلى المدينة، ولكنه قبل أن يعود إليها بعث نفرًا من أصحابه تحت إمرة أبى بكر إلى ناحية مكة، ليُرهب قريشًا ويعلمها بمسيرهم، فذهبوا حتى وصلوا إلى «كُرَاع الغَمِيم» - على مرحلتين من مكة - ثم عادوا. وغاب رسول الله ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة، ثم رجع إليها فى يوم شديد القيظ، فكان يقول: «آيبون تائبون، لربنا حامدون. أعوذ بالله من وَعْثَاء السفر، وكآبة المُنْقَلب وسوء المنظر فى الأهل والمال»!

غزوة ذى قرد

وبعد ليال من رجوعه، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة

(١) البريد: فرسخان، أو اثنا عشر ميلا، أو نحو تسعة كيلو مترات.

خرج فى نحو خمسمائة من أصحابه إلى «ذى قَرَد» - وهو ماء على نحو يوم من المدينة، بينها وبين خيبر - ليُرِدَّ غارة لعُيَيْنَة ابن حِصْن على سَرْح[1] المدينة بناحية «الغابة». وكانت بها إبل لرسول الله ﷺ ترعى بن أشجارها، فأغار عليها عيينة ذات ليلة فى رجال من غطفان، فقتلوا راعى الإبل، واختطفوا امرأة كانت معه، وذهبوا بالمرأة وبالإبل إلى ديارهم، فعلم بأمرهم سَلَمَةُ ابن الأكْوع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد فى جبل سَلْع وجعل يصرخ ويستغيث، حتى بلغ صُراخه أهل المدينة. فنودى فى المسلمين «ياخَيْل الله اركبى»! فسارع الرجال يستبقون إلى تلبية النداء؛ فأمَّر رسول الله ﷺ المقداد بن الأسود على من بادر إليه من الرجال، وقال له «اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس». فجدُّوا فى أثر القوم حتى أدركوا أخْرَياتهم فقتلوا منهم ثلاثة رجال، واستنقذوا عشر لِقَاح[2] وأفلت القوم بعشر. وغدا رسول الله ﷺ فى نحو خمسمائة فلحق أصحابه، وتلاحق به الناس حتى اجتمعوا بذى قرد؛ ولكن القوم فاتوهم ولحقوا بمنازل غطفان، فلم ير صلى الله عليه وسلم أن يتابعهم، وأقام على ذلك الماء يومًا وليلة، ثم رجع إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس ليال.

(١) السرح: الماشية التى تسرح فى المرعى.

(٢) اللقاح: النوق الحوامل.

شجاعة سلمة بن الأكوع

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع من ضروب الشجاعة والإقدام فى هذه الغزوة، ما جعل رسول الله ﷺ يثنى عليه بقوله: «خير فُرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجَّالتنا اليوم سلمة»! ويعطيه سهم الراجل والفارس جميعًا. يقول سلمة - فيما رواه البخارى ومسلم عن يزيد بن أبى عبيد -: «خرجت قبل أن يؤذَّن بالأولى[1]، وكانت لِقاح رسول الله ترعى بذى قرد؛ (قال): فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أُخِذَت لقاحُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان. (قال): فصرخت ثلاث صرخات: «ياصباحاه»! (قال): فأسمعت ما بين لابتى المدينة[2]، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم بذى قرد، وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلى - وكنت راميًا - وأقول:

أنا، أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّع[3]

وأرتجز، حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين

---

(١) يعنى قبل صلاة الفجر.

(٢) لابتيها: ناحيتيها.

(٣) الرضع: اللئام. واليوم يومهم: أى يوم هلاكهم.

بُردة. (قال) : وجاء النبي، صلى الله عليه وسلم، فى الناس، فقلت : يانبي الله إنى قد حَمَيْتُ القوم الماء وهم عطاش؛ فابعث إليهم الساعة. فقال : «يا ابن الأكوع، مَلَكْتَ فأسْجِحْ»[1]. (قال) : ثم رجعنا ويُرْدِفُنى رسول الله ﷺ على ناقته، حتى دخلنا المدينة».

أما المرأة فقد استطاعت أن تَتَغَفَّل القوم وتُفْلِت من إسارهم، ثم نجت بنفسها على ناقة لرسول الله ﷺ مما أخذه القوم، فما شعر المسلمون إلا وهى تدخل عليهم المدينة. فلما قدِمتْ على النبي، صلى الله عليه وسلم، قصت عليه خبرها، ثم قالت : يارسول الله، إنى نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجانى الله عليها. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال : «بِئْسَمَا جَزَيْتِها - أنْ حَملك الله عليها ونجاك - أن تنحريها.. ! إنه لانذر لأحد فى معصية الله، ولا لأحد فيما لا يملك. إنما هى ناقة من إبلى.. ارجعى إلى أهلك على بركة الله»!

* * *

وفى ربيع الأول - أيضًا - بعث رسول الله ﷺ عُكاشة بن محصن فى أربعين راكبًا إلى «الغَمْر» - وهو ماء لبنى أسد على

(١) أسجح : أى أحسن، والتعبير فى معنى أخذ الأمور بالرفق، لا بالشدة والعنف.

طريق نجد - فخرج سريعًا ليأخذ القوم على غرة، ولكنهم نَذِروا به فهربوا؛ فجعل يسأل عن أخبارهم حتى وقع على أنعام لهم، فاستاقها - وكانت مائة بعير - ثم رجع إلى المدينة ولم يَلْقَ كيدًا.

سرية ذى القصة

وفى ربيع الآخر من هذه السنة (أغسطس ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ محمد بن مَسْلَمة فى عشرة رجال إلى بنى ثعلبة «بذى القَصَّة» - وهو مكان على أربعة وعشرين ميلا من المدينة من ناحية الحجاز - فكمن لهم المشركون فى مائة من رجالهم، وتربصوا بهم حتى ناموا، ثم انقضوا عليهم فقتلوهم جميعًا؛ إلا محمد بن مسلمة، فقد وقع جريحًا حتى ظنوا أنه مات، فتركوه فمر به رجل من المسلمين فحمله إلى المدينة.. وعلم صلى الله عليه وسلم بما كان، فأرسل أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا؛ فلما وصلوا إلى منازل القوم لم يجدوا بها إلا بعض النسوة والنَّعَم وبعض المتاع الرَّثّ، فرجعوا بما وجدوا من ذلك ولم يصلوا إلى القوم.

سرية الجموم

وفى ربيع الآخر - أيضًا - بعث رسول الله ﷺ زيدَ بن

حارثة فى نفر من المسلمين إلى بنى سُلَيم «بالجَمُوم» - على أربعة أميال من المدينة إلى ناحية البصرة - فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزَيْنَة فأخذوها، فدلتهم على بعض منازل بنى سليم، فأصابوا هناك نَعَمًا وشاء، ووجدوا بعض رجالهم فأسروهم، وكان فى هؤلاء الرجال زوجُ تلك المرأة؛ فلما رجع زيد بما أصاب من القوم، وهب رسول الله ﷺ للمرأة نفسَها وزوْجها.

سرية العيص

وفى جمادى الأولى من هذه السنة (سبتمبر ٦٢٧) بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب إلى «العِيص» - على أربع ليال من المدينة - ليعترض عيرًا لقريش بلغه أنها قادمة من الشام، فأدركها زيد فأخذها، وفيها يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية؛ وأسروا فيمن أسروا من الرجال يومئذ أبا العاص بن الربيع، زوج زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما قدموا المدينة استجار أبو العاص بزينب، فأجارته، ونادت فى الناس حين صلى رسول الله الفجر: «إنى قد أجَرْت أبا العاص»! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتم»؟ قالوا: نعم. قال:

«والذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء من هذا حتى سمعت ما سمعت.. المؤمنون يد واحدة، يجيرُ عليهم أدناهم[1]. وقد أجرنا من أجارت»..

ثم دخل منزله؛ فدخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه. فقال - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به» فقالوا: يارسول الله، بل نرده. فجعلوا يردون ما أخذوا، حتى إن الرجل ليأتى بالدَّلْو، والرجل يأتى بالإداوة، حتى ردوا عليه كل ماله بأسره لا يفقد منه شيئًا.

إسلام أبى العاص

فذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله، ثم قال: «هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه»؟ قالوا: «لا»، قال: «هل أوْفيت ذمتى..؟ قالوا: نعم، وجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا». قال: «فإنى أشهد أن لا إله

(١) يتكلم بلسانهم أى واحد منهم، فيحترم الجميع كلمته ويمضون عهده.

إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.. ! والله ما منعنى من الإسلام عنده: إلا تخوُّف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم؛ فلما ردها الله عليكم وفرغت منها أسلمت».. ثم خرج فقدم المدينة مسلمًا، فرد رسول الله ﷺ عليه زوجته.

سرية الطرف

وفى جمادى الآخرة من هذه السنة (أكتوبر ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى بنى ثعلبة بناحية الطَّرف - وهو ماء بطريق العراق على ستة وثلاثين ميلا من المدينة - فخرج فى خمسة عشر رجلا؛ فأصاب عشرين بعيرًا، وهربت الأعراب فلم يعثر منهم على أحد. وصبَّح زيد المدينة بالنَّعَم، بعد أن غاب عنها أربع ليال.

سرية وادى القرى

وفى رجب من هذه السنة، بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة إلى «وادى القُرَى»، ليقتص من بنى فزارة؛ وكانوا قد تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما كان معه وكادوا يقتلونه. فلما جاء المدينة وأخبر رسول الله ﷺ

بما كان منهم، أرسله إليهم فى نفر من أصحابه؛ فساروا إليهم حتى دهموهم فى منازلهم فأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعًا كثيرًا.

سرية دومة الجندل

وفى شعبان (نوفمبر ٦٢٧)، أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من أصحابه، إلى بنى كلب «بدُومَة الجندَل» - وهى قُرَى فى أطراف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة - وقال لهم: «اغزوا جميعًا فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله؛ لا تَغُلّوا، ولا تغدِروا، ولا تمثّلوا، ولا تَقتلوا وليدًا».. فسار إليهم عبد الرحمن فى أصحابه؛ فجعل يعرض الإسلام عليهم ثلاثة أيام. وأسلم الأصبغ بن عمرو - وهو شيخهم وكان نصرانيًّا - فأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام بقيتهم على دينهم على أن يدفعوا الجزية؛ فصالحهم عبد الرحمن على ذلك، وتزوج ابنة الأصبغ وقدم بها المدينة، فهى أم ولده سَلَمَة ابن عبد الرحمن.

سرية الهمج

وفى شعبان - أيضًا - بعث رسول الله ﷺ على بن أبى

طالب فى مائة رجل، إلى بنى سعد بن بكر «بفَدَك» - وهى قرية على يومين أو ثلاثة من المدينة بينها وبين خيبر - وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بلغة أنهم يريدون أن يعاونوا يهود خيبر على غزو المدينة، وكان يهود خيبر يجمعون لذلك؛ فسار علىّ إليهم بمن معه من الرجال، حتى انتهوا إلى ماء يسمى «الهمَج» بين خيبر وفدك، فوجدوا به رجلا من القوم فأمَّنوا على نفسه حتى دلهم على مكانهم. فلما أحس القوم بهم هربوا؛ فأخذ المسلمون من أنعامهم خمسمائة بعير وألفى شاة، فقدموا بها المدينة دون أن يلقوا كيدًا.

مقتل أبى رافع

وفى رمضان (ديسمبر ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ عبد الله ابن أبى عَتِيك فى أربعة من رجال الخزرج إلى خيبر، لقتل زعيم من زعمائهم، هو أبو رافع سلام بن أبى الحُقيق. وكان أبو رافع من زعماء بنى النضير الذين ذهبوا إلى خيبر بعد جلائهم عن المدينة، فدانت لهم خيبر بالرياسة؛ وكان تاجرًا كثير المال واسع التجارة، حتى كان يلقَّب بتاجر الحجاز؛ وكان ممن حزَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ فى غزوة الخندق، وأعان المشركين فيها بالمال الكثير فلما انتهت بهزيمة الأحزاب وتقتيل بنى قريظة،

أخذ يحزب الأحزاب من جديد، ليثأر لبنى قريظة؛ فأجْلَبَ[1] فى غطفان وفيمن حوله من مشركى العرب، وجعل لهم الجُعْل العظيم لحرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فبعث إليه رسول الله ﷺ هؤلاء النفر الخمسة من رجال الخزرج ليقتلوه؛ ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فكمنُوا حتى هدأت الرِّجْل وسكنت الحركة، ثم جاءوا إلى منزله فقدِّموا بين أيديهم عبد الله بن أبى عتيك لأنه كان يرطُن باليهودية؛ فاستفتح الباب وقال: جئت أبا رافع بهدية ففتحت له امرأته. فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشاروا إليها بالسيوف فسكتت، فدخلوا عليه فَعَلَوْهُ بأسيافهم وجعلوا يضربونه؛ واتكأ عبد الله بن أُنَيْس بسيفه على بطنه حتى بلغ الفراش وهلك، ثم نزلوا؛ فصاحت امرأته فتصايح أهل الدار.

وكانِ عبد الله بن أبى عتيك رجلا سيئ البصر، فوقع من السلم، فوثئت يده وَثْئًا[2] شديدًا - ويقال: رجله - فحملوه حتى أتَوْا مَنْهرًا[3] من عيونهم فدخلوه، وخرج القوم فى آثارهم

(١) أجلب فى القوم: سعى فيهم ليجلبهم إلى جانبه فى الحرب ونحوها.

(٢) الوثء: صدع يصيب اللحم ولا يبلغ العظم، وقيل هو وجع فى العظم من غير كسر.

(٣) المنهر: فضاء يكون بين البيوت تلقى فيه الكناسة.

يطلبونهم على ضوء النيران فلم يروهم؛ فمكثوا فى مكانهم يومين حتى سكن عنهم الطلب. (قالوا): فاحتملنا صاحبنا وقدمنا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده فى قتله، كلنا يَدَّعيه. فقال: «هاتوا أسيافكم» فجئناه بها، فنظر إليها. فقال لسيف عبد الله بن أنيس: «هذا قتله؛ أرى فيه أثر الطعام».

الدفاع الهجومى

وهكذا مضت السنة السادسة أو أكثرها فى مثل هذه المناوشات؛ وكان العامل البارز فيها من الناحية الحربية هو عامل المفاجأة، وأخذ الطريق على العدو قبل أن يأخذ أهبته ويستجمع قوته. على أن الهدف فيها جميعًا لم يكن هو المبادأة بالعدوان، فإن العدوان مبدأ لا يُقرُّه الإسلام ولا يرتضيه؛ إنما كان الهدف هو الدفاع الهجومى أو الهجوم الدفاعى لا غير: ﴿وقاتِلُوا فى سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلونَكُم ولا تَعْتَدوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المُعْتَدينَ﴾[1]. فكل ما كان من هذه المناوشات إنما كان ردًّا لعدوان بادى به عدو، أو إرهابًا لعدو يريد أن يعتدى. ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها على أتم وجه؛ فإنه ما كادت

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠.

السنة السادسة تنتهى، حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت فى نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهيأ لحياة استقرار وسلم بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة الجوار فيما بينهم على تناسى الثارات ودفن الحزازات، وعلى التعاون والتلاقى فى سبيل الخير فى طمأنينة وأمن . .